مكية الجزء الثلاثون سورة الشرح آياتها ٨

سُورَةُ الشَّرْحِ ، مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أَيْ: قد شرحنا لك صدرك، شرحه بالتوحيد والوحي والعلم والإيمان، فرزقه الطمأنينة والسكينة، وهدوء الحال والمآل، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]. وانشراح الصدر يتحصل بالتوحيد والإسلام وبطلب العلم وبذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨]، وقيل: أن المعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أَيْ: ألم نشق لك صدرك في ليلة الإسراء، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَتَاهُ آتٍ فَأَخَذَهُ فَشَقَّ بَطْنَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَرَمَى بِهَا، وَقَالَ: هَذِهِ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ فَأَقْبَلَ الصِّبْيَانُ إِلَى ظِئْرِهِ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدِ انْتَقَعَ لَوْنُهُ» قَالَ أَنَسٌ: «فَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَثَرَ الْمِخِيطِ فِي صَدْرِهِ»(١)، وقد شُقَّ صدر النبي ﷺ مرتين مرة في صغره وهو يلعب مع الغلمان وشق صدره ليلة المعراج، والصحيح أن المعنى الأول هو الأكمل.

وفي هذا دليل على أن من أعظم النعم انشراح الصدر؛ فإن كثيرًا من الناس إذا ضاقت صدورهم ضعف إيمانهم ولحقهم الحرج، وكان من دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٥-٢٨]، فكم من إنسان لم يعرف السنة والتوحيد؛ بسبب ما على صدره من الران الذي يغطي الصدر بكثرة الذنوب والمعاصي نسأل الله السلامة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، ويُزيل هذا الران الاستغفار، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٢١).

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أَيْ: كفرنا عنك سيئاتك وما لحقك، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١-٢].

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أَيْ: أن الذنوب والمعاصي كالحمل الشديد على الإنسان، لاسيما يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥]. فتب إلى الله أيها المسلم قبل أن تتحمل هذه الأوزار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا ؛ قَدْ أَبْلَغْتُكَ»(٢).

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ من أن الله لا يذكر إلا وذكر معه محمد ﷺ، لا سيما في الشهادة عند دخول الإسلام، وعند الأذان. فمن رفع ذكر محمد ﷺ أنه يحبه كل مسلم، ويصلي عليه كل مسلم، بل إن كثيرًا من الكفار يعظمونه لما فتح الله جَلَّ جَلَالُهُ عليه وإنما منعهم من الاستجابة إما الكبر أو الحسد، أو غير ذلك، فهذه فضائل رسول الله ﷺ تتلى عليك أيها المسلم؛ لتعلم حقه، وتؤديه على الوجه الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ من غير غلو، فإن النبي ﷺ سمع جَارِيَةً

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

تقول: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ - أنكر عليها ذلك - وقَالَ ﷺ: «**لاَ تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»(١)، وعَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ**»(٢)، ولما قالوا: يَا سَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَيَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ، وَاللهِ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ**»(٣). فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فكيف بمن يدعو العيدروس، والهادي، والجبرتي، وابن العجيل، وابن علوان، وغير ذلك من القبور التي اتخذت أوثانًا تُدعى من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فالله رفع ذكر محمد ﷺ، ومع ذلك أخبر أنه بشر لا ينفع ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبشرًا جميع المؤمنين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عسرًا وذكر يسرين، فما من عسر إلا ويعقبه يسران، وقد قال النبي ﷺ: «**وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(٤)، فمهما ضاقت بك فانتظر فرج الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]، وكما قيل:

وَلَـرُبَّ نازِلَـةٍ يَضِـيقُ بِهـا الفَتـى ❁❁❁ ذَرعًـا وَعِنـدَ اللهِ مِنهـا المَخـرَجُ
كَمُلَت فَلَمَّا استَحكَمَت حَلَقاتُها ❁❁❁ فُرِجَـتْ وَكُـان يظُنُّهـا لا تُفـرَجُ

وقيل:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ❁❁❁ يَكُـونُ وَرَاءُه فَـرَجٌ قَرِيـبُ

وقيل:

دَعِ المقـاديرَ تجـري في أعنَّتِهـا ❁❁❁ ولا تَبِيـتَنَّ إلا خـاليَ البـالِ
ما بين غمْضةِ عينٍ وانتباهتِها ❁❁❁ يُغَـيِّرُ اللهُ مِـنْ حـالٍ إلى حـالِ

﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾ أي: إذا فرغت من جميع أعمالك الدنيوية فانصب إلى عبادة ربك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠١)، عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) أخرجه أحمد (١٣٥٢٩)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والصلاة. فإذا فرغت من عملك فانصب إلى ربك، وقم بين يديه، شاكرًا لنعمه عليك، متضرعًا متذللًا متخشعًا، رزقك، أعطاك، وحفظك، وكساك، وأطعمك، إلى غير ذلك، فإذا فرغت فانصب. وقيل المعنى: فإذا فرغت من عبادة فانصب إلى عبادة أخرى.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ أَيْ: كن راغبًا فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الرغبة عبادة جليلة ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٩٠]. والآية دالة على فضيلة الدعاء، فإن من أعظم طرق الرغبة وإظهار الفقر هو التذلل بين يدي الله بدعائه ورجائه، في تفريج الهموم، وقضاء الديون، وصلاح الأبناء، وحصول الخير العظيم.

والحمد لله رب العالمين.